نِصْفُ المَسافَة

بصائر في النفس والحياة

إحسان الفقيه

نِصْفُ المَسافَة

بصائر في النفس والحياة

إن الثورة التي ينبغي أن نقوم بها الآن تتمثل في معركة تشكيل الوعي والفكر لدى الشرائح المختلفة ... هي مهمة قادة الرأي وأهل الإصلاح والدعاة والقيادات الشعبية والمحاضن التربوية، نحتاج إلى تنقيح أفكار ومفاهيم، وعودة إلى القيم الأصيلة...

أعلم أن كلامي هذا هو مجرد تنظير، لكنني هنا بصدد الحديث عن أصل الداء، وقرع الأجراس، وعند منتصف المسافة ينتهي دوري، ليبدأ دور كل من يقتنع بالفكرة والتشخيص، في أن يترجم الكلمة إلى واقع عملي، وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة...

حقا إن للإنجاز متعة، وفي استضافة مكتبة الأمة كتابا جديدا موقّعا باسمك قمة اللذة، لكن السعادة الحقيقية التي أستشرفها، وتتوق نفسي إليها، أن يفتح الله لي من رحمة لا مُمسك لها، بأن يُحدث العمل تغييرا في القرّاء بقدر أشواقي إلى التغيير...

مهمتي تنتهي عند نصف المسافة ......

النصف المتبقي هو واجبك أنت......

إحسان الفقيه

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun2005@hotmail.com
www.almamoun-jo.net

ISBN 978-9957-649-10-4

المطابع المركزية
عمان - الأردن

نصف المسافة

بصائر في النفس والحياة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٧/١١/٥٧٧٥)

٣٠٦

الفقيه، إحسان محمود
نصف المسافة- بصائر في النفس والحياة/ إحسان محمود
الفقيه. _ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٧.
(١٨٤) ص
ر.إ.: (٢٠١٧ /١١ /٥٧٧٥).
الواصفات: / الثقافة العامة / / التربية /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

(ردمك) ٩٧٨ - ٩٩٥٧ - ٧٧ - ٤٥٣ - ٠ ISBN

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun2005@hotmail.com
www.almamoun-jo.com

نصف المسافة

بصائر في النفس والحياة

إحسان الفقيه

دار المأمون للنشر والتوزيع

مقدمة

د. مأمون فريز جرار

(١)

منذ ظهر اسم "إحسان الفقيه" في عالم الكتابة منذ سنوات وهو يملأ الدنيا ويشغل الناس!

ذلك أنها دخلت عالم الكتابة بقوة، وكتبت ما لفت إليها الأنظار، وجعلت بعض الناس يتساءلون: أهو اسم حقيقي أم قناع لكاتب متمكن في العلم والثقافة؟ وكأنهم استكثروا أن يكون من النساء من يتفوقن ويبدعن!

إن المتابع لما تكتبه إحسان الفقيه يتجلى له من غير عناء أن الله حباها ذكاء حادا، وبصيرة مدركة لحقائق الأمور، يعزز ذلك ثقافة غزيرة متنوعة شكلت لها ذخيرة معرفية تحسن استخدامها في ما تكتبه، من غير أن تشعرك أنها تتبرج بتلك الثقافة.

وإذا كان بعض الكتاب أو ربما كثير منهم يسعى إلى إرساء منزلة له في عقول القراء أو قلوبهم بدافع من الهوى أو حرص على الشهرة فإنك وأنت تقرأ لإحسان الفقيه تجد رسالية الهدف، فهي كالرائد البصير الحريص على قومه، يتحرق شوقا ليرشدوا، ويسعى جهده ليستقيموا، يتجلى ذلك في إيمانية الرؤية، وإيجابية النظرة إلى الأمور، وبث الأمل وروح التفاؤل في النفوس،فهي تجوب تضاريس الفكر، وجغرافية الحاضر والماضي لتلتقط ما يكون نافعا وحافزا من شواهد المواقف والرموز لإصلاح ما تراه من خلل في واقع الأمة، ورسم ما تتطلع إليه من مستقبل مشرق لها، وهذا ما نجده في هذا الكتاب من البصائر التي تضع يدها فيها على

بسم الله الرحمن الرحيم

مواطن الداء ولا تكتفي بذلك بل تقدم الدواء المستخلص من صيدلية القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، ومن عبر التاريخ وتجارب الأمم.

ويلفت نظرك في مسيرتها أنها في كثير من الأحيان تخوض معارك في وسائل الاتصال في جبهات حساسة، وتجد في ساحاتها من يطلق لسانه في شأنها بالسوء، متنكبا أخلاق الرجال وخصومة الفرسان؛ ومع ذلك فهي لا تبالي بالمخاطر، فتراها تدخل في مضايق شؤون الأمة وصراعاتها وخلافاتها لتدلي بدلوها غير هيابة ولا وجلة،رائدها الحق، ودليلها الصدق،غير مبالية بالعواقب التي يشغلها عنها قلب شغلته هموم الأمة، مما سبب لها المتاعب والمآزق ، فلا عجب أن تجد أصداء تلك الشكوى في "بصائرها".

(٢)

ما أجمل أن تجد نفسك في لقاء واع مع حالة وعي، وأن تنكشف لك البصائر من أهل البصيرة.

البصائر التي يضمها هذا الكتاب هي نوافذ على قضايا أساسية في النفس والحياة وواقع الأمة ومستقبلها، تستنفر في الإنسان الفرد الطاقات الكامنة، وتستفزه ليكون كما يجب أن يكون، وهو الكائن المكرم المستخلف في الأرض، فما يليق به أن يطوي الأشرعة التي تقوده إلى استكشاف نفسه والكون من حوله، إنها تدعوه إلى اكتشاف نفسه ليدرك أنه وإن يكن فردا فإنه إن أطلق أشرعته فإنه يمكن أن يحيي أمة ويعلي من شان دولة، حين يتسلح بالأمل وينطلق في ميادين العمل.

إنها تدعو إلى إدراك حقيقة الدنيا بعيدا عن الزهد الزائف الذي يعطل الطاقات، ويحول بين الإنسان وتحقيق معنى الخلافة ويعطل عمارة الأرض ولا يتحقق ذلك كله إلا بأداء العبادة بمفهومها الشامل.

وما أروع أن يمتلك الإنسان أحلاما قابلة للتحقيق، ورؤيا قابلة للتأويل، أحلاما لا تتمحور حول الذات بل تشمل ما يحقق للفرد سعادته وللأمة منزلتها في مسيرة البشرية ، أحلاما تحقق مكارم الأخلاق بمعناها الشامل المتكامل.

ما أروع البصائر التي لا تترك جانبا من جوانب الحياة إلا فتحت نافذة نحوه لتتكامل الرؤية بين المعنى والمادة، بين الأخلاق التي هي ثمرة للعقيدة السليمة، والعمل الخيري الذي يمسح على وجوه المتعبين بألوان البر الإغاثي والعلاجي ليتحول المحتاج الفقير إلى مكتف منتج لا إلى فقير مزمن الفقر مدى حياته، وذلك يقتضي ترشيد الإنفاق ليعالج ما في الواقع من حاجات.

ما أروع البصائر التي تدعو إلى الإيجابية في الحياة ومحاربة اليأس وثقافة العبودية، ليكون الإنسان كبيرا بمقدار ما تكبر أهدافه، ويكون متسلحا بمكارم الأخلاق في حال الاتفاق كما يكون متسلحا بخصومة الفرسان في حال الاختلاف.

وما أسوأ أن يتخذ الإنسان منهج التصنيف في مواجهة من يخالفونه ليطلق التهم الجاهزة، ويشعل المعارك الجانبية التي تشغل الأمة عن قضاياها الكبرى، وتشتت الشمل وتفرق الجمع.

وتمتد آفاق البصائر في كل زوايا الحياة وجوانبها لتعالج قضية التعليم وغياب البحث العلمي في مجتمعاتنا مما يجعله في منأى عن المجتمع التكنولوجي، وتمتد آفاق البصائر لتتسلل في أعماق الإنسان تنير له طريق السعادة الحقيقية بالإيمان والعمل الصالح، وتعالج ما يصيب الأمة من يأس وقنوط في حالاتها الحرجة التي تتعرض فيها إلى القواصم من الأحداث كما حدث في زمن الفرنجة والتتار، وتأخذ العبرة وهي تجلي كيف خرجت الأمة من تلك القواصم معافاة واستردت مكانتها وقوتها ودورها الرسالي في ركب البشرية.

لقد أثلج صدري أن تتجه إحسان الفقيه إلى إصدار إنتاجها الفكري في كتب والا تكتفي بنشره في المواقع الإليكترونية وفي الصحف، فذلك فضاء سريع النسيان تتدفق فيه المعلومات تدفق النهر الجاري ويطوي اللاحق منها ما سبقه.

أسأل الله أن يهيئ لإحسان الفقيه السبيل لتستثمر قدراتها وذكاءها وثقافتها وحيويتها الفكرية وبصيرتها لتكون أدوات هداية ووسائل رشد تحقق للأمة من جديد موقعها في الريادة للبشرية والشهادة على الناس، ومن قبل ذلك وبعده يدرك الإنسان حقيقة وجوده ويكون على بينة وبصيرة وهو يضع أمام ناظريه جابات الأسئلة الملازمة له منذ وجد على الأرض: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا جدت؟ وإلى أين المصير؟

بعض المؤلفين يرتقي درجات السلم واحدة إثر أخرى، لكننا مع إحسان الفقيه ها في كتابها الأول ترتقي مكانا عاليا بين الكبار من أصحاب القلم،فلتمض ى بركة الله ترفد المكتبة بالمزيد من المؤلفات التي تنير الدروب، وتنعش القلوب، إثر تهدي سبيل الرشاد للفرد، والعزة والكرامة للأمة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كلمة لابد منها

"لكل إنسان وجود وأثر، ووجوده لا يغني عن أثره، ولكن أثره يدل على قيمة وجوده"[(١)].

تلك الكلمات التي أطلقها د. علي الحمادي، كم ترددت في زوايا عقلي، وتخللت مسالك روحي، وأوقدت فيَّ الهمَّ لأن أسير في ركب الباذلين، حتى إذا ما وصلتُ إلى نقطة النهاية، قالوا: من هنا مرَّت...وهذا الأثر.

لَكَمْ تاقت نفسي إلى وضع لبنة في بناء الأمة وبعثها الجديد، ولم أحفل يوما بقلة مدادي، ولا بضعف صوتي، فعليّ النداء، وعليه ﷺ البلاغ، ومني الجهد، وإليه يرجع كل توفيق وسداد.

سكنتني الأحلام في زمن الصبا، أن أحلق لمرأى حروف اسمي منقوشة على غلاف كتاب يزين المكتبات، فلما مشيت على ساحل المعرفة وبللت قدميَّ على شواطئها، تبدّى لي جهلي وسخافة أفكاري، وعلمت أن الحياة أعظم من أن تكون نشوة ظفر، وأنها تقطع على ظهر الجد لا الهزل، فمن عاشها بغير أن يحمل رسالة وهمًا، فقد ضل سعيه، وضاع عمره، وهرول وراء السراب.

وكما قيل:

إذا هبّـت رياحـك فاغتنمهـا ... فعقبى كلّ خافقةٍ سكون
ولا تقعد عـن الإحسـان فيهـا ... فلا تدري السكون متى يكون

فلما هبت رياح العزم، حدثتني نفسي بمحاكاة أهل الفكر والدعوة والإصلاح

(١) ٢٠٠ حكمة قيادية ووصية إدارية، د. علي الحمادي، ص(٣١).

(٣)

لقد أثلج صدري أن تتجه إحسان الفقيه إلى إصدار إنتاجها الفكري في كتب ولا تكتفي بنشره في المواقع الإليكترونية وفي الصحف، فذلك فضاء سريع النسيان تتدفق فيه المعلومات تدفق النهر الجاري ويطوي اللاحق منها ما سبقه.

أسأل الله أن يهيئ لإحسان الفقيه السبيل لتستثمر قدراتها وذكاءها وثقافتها وحيويتها الفكرية وبصيرتها لتكون أدوات هداية ووسائل رشد تحقق للأمة من جديد موقعها في الريادة للبشرية والشهادة على الناس، ومن قبل ذلك وبعده ليدرك الإنسان حقيقة وجوده ويكون على بينة وبصيرة وهو يضع أمام ناظريه إجابات الأسئلة الملازمة له منذ وجد على الأرض: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا وجدت؟ وإلى أين المصير؟

بعض المؤلفين يرتقي درجات السلم واحدة إثر أخرى، لكننا مع إحسان الفقيه نجدها في كتابها الأول ترتقي مكانا عاليا بين الكبار من أصحاب القلم،فلتمض على بركة الله ترفد المكتبة بالمزيد من المؤلفات التي تنير الدروب، وتنعش القلوب، بصائر تهدي سبيل الرشاد للفرد، والعزة والكرامة للأمة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كلمة لابد منها

"لكل إنسان وجود وأثر، ووجوده لا يغني عن أثره، ولكن أثره يدل على قيمة وجوده"[(١)].

تلك الكلمات التي أطلقها د. علي الحمادي، كم ترددت في زوايا عقلي، وتخللت مسالك روحي، وأوقدت فيَّ الهمَّ لأن أسير في ركب الباذلين، حتى إذا ما وصلتُ إلى نقطة النهاية، قالوا: من هنا مرَّت...وهذا الأثر.

لَكمْ تاقت نفسي إلى وضع لبنة في بناء الأمة وبعثها الجديد، ولم أحفل يوما بقلة مدادي، ولا بضعف صوتي، فعليّ النداء، وعليه ﷻ البلاغ، ومني الجهد، وإليه يرجع كل توفيق وسداد.

سكنتني الأحلام في زمن الصبا، أن أحلق لمرأى حروف اسمي منقوشة على غلاف كتاب يزين المكتبات، فلما مشيت على ساحل المعرفة وبللت قدميَّ على شواطئها، تبدَّى لي جهلي وسخافة أفكاري، وعلمت أن الحياة أعظم من أن تكون نشوة ظفر، وأنها تقطع على ظهر الجد لا الهزل، فمن عاشها بغير أن يحمل رسالة وهمًا، فقد ضل سعيه، وضاع عمره، وهرول وراء السراب.

وكما قيل:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها ... فعقبى كلّ خافقةٍ سكون
ولا تقعد عن الإحسان فيها ... فلا تدري السكون متى يكون

فلما هبت رياح العزم، حدثتني نفسي بمحاكاة أهل الفكر والدعوة والإصلاح

(١) ٢٠٠ حكمة قيادية ووصية إدارية، د. علي الحمادي، ص(٣١).

ولو لم أكن منهم – فكان هذا الكتاب، وعنوانه "نصف المسافة"، حيث أن كلماتي لن تجدي نفعا إلا إذا استقبلها القارئ وترجمها إلى واقع، فأنا وهو نتقاسم مسافة الطريق، عليّ النصح والبلاغ، وعليه السعي والعمل.

عندما ملأتني الفكرة، وجدت نفسي أصغر وأقل من أن أكتب في هذا الشأن، غير أن الهواجس تبددت، عندما نظرت إلى السماء بعين الرجاء، وأبصرت من نفسي رغبة في نفع أمتي، فإن لم يُكتب لي التوفيق، فحسبي الأجر والمثوبة، ونيل شرف المحاولة، فجمعت شعث مقالاتي المبثوثة في الصحف والمواقع الإلكترونية، وبنيت عليها، وجعلتها عمدة هذا المطبوع، بعد تعاهدها بالتنقيح والتعديل والحذف والإضافة، وزدت عليها ما يسره الله لي بمنته وكرمه.

يهدف الكتاب إلى بناء الوعي الجماهيري، عبر تصحيح الفهم والإدراك في منظومة القيم والسلوك، وفتح آفاق للمعرفة البناءة، والوقوف على الأخطاء التي ارتكست بها الأمة، ورسم معالم الطريق إلى نهضة ونقلة حضارية.

وكما يقول الطاهر بن عاشور: "إن إصلاح التفكير من أهم ما قصدته الشريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع، وبهذا نفهم وجه اهتمام القرآن باستدعاء العقول للنظر والعلم والاعتبار"[١].

إن هذه الأمة لا تفتقر إلى الموارد، ولا إلى الثروة البشرية، ولا إلى الخبرات والعقول، لكي تنهض وتتسلم مفاتيح الريادة من جديد، إنما هي أمة أصابتها العلل والأمراض، على رأس هذه العلل: أزمة الفهم وغياب الوعي.

إنها معركة مفاهيم، تخوضها الأمة داخل وخارج حدودها، وإنني على يقين أن تحرير الأرض ينبغي أن يسبقه تحرير العقول.

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص(٥٢).

وددت لو أن كلماتي شقت طريقها إلى قلوبكم فانتفعتم ونفعتم وانطلقتم، ليتني أكون كمن قال فيهم عبد الوهاب عزام رحمه الله: "ولا ينطق بكلمة الحق الخالدة إلا عقل مدرك، وقلب سليم، إلا قائل يعتد بنفسه ويثق برأيه، فيرسل الكلام أمثالا سائرة، وبينات في الحياة باقية، لا يصف وقتا محدودًا، ولا أمرًا موقوتًا، ولا إنسانًا فردًا، ولا حدثا واحدًا، ولكنه يعم الأجيال والأعصار، والبلدان والأقطار.

وعلى قدر عظم القائل: تجد هذا العموم في قوله، يبغي أن يجعل كلماته للناس منهاجًا، وفي ظلمات الحياة سراجًا وهاجًا"[١].

وليت كلماتي تكون شعلة للهمم، فأصيح فيكم:

أنت نشء وكلامي شعلٌ ... عل شدوي مضرم فيك حريقا
ليس في قلبيَ إلا أن أرى ... قطرة فيك غدت بحرا عميقا

ربنا أنزل على جهد المقل بركة من عندك، توقظ به عاطفة وحسا.

إحسان الفقيه

(١) الشوارد، عبد الوهاب عزام، ص(٣٤٠)، نقلا عن المنطلق، محمد أحمد الراشد، ص(٢٧).

البصيرة الأولى

أطلق لنفسك أشرعتها

"لقد هبت علي نفحة مُنعشة من نسيم السحر في الصباح الباكر، فناجتني وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه، لا يليق به إلا عروش المجد"

محمد إقبال

(١)

أطلق لنفسك أشرعتها

كان عمره شهرين عندما وقع ذلك الفيل الأبيض في فخ الصيادين بإفريقيا، وبيع لثري يمتلك حديقة حيوانات، أودعه فيها مطلقا عليه اسم "نيلسون"، وهناك ربط رجله بسلسلة حديدية تنتهي بكرة كبيرة من الحديد الصلب.

عزم نيلسون على تحرير نفسه، لكنه كلما جذب السلسلة شعر بألم شديد، ومع إخفاقه في عدة محاولات، توقف ولم يعاود المحاولة.

في إحدى الليالي، قام مالك الحديقة وعماله بتغيير الكرة الحديدية بكرة أخرى مصنوعة من الخشب، كانت الفرصة مواتية للفيل لتخليص نفسه، لكن نيلسون لم يُبد أي محاولة، فقد تمت برمجته على أن محاولاته ستبوء الفشل وتسبب له الألم والجراح.

أحد الأطفال زار الحديقة بصحبة أسرته، فسأل مالكها: كيف لا يحاول هذا الفيل القوي سحب الكرة الخشبية وتخليص نفسه؟

فأجابه مالك الحديقة: "أنت تعلم يا بني أن الفيل نيلسون قوي جدا ويستطيع تخليص نفسه في أي وقت، لكن الأهم من ذلك أن الفيل لا يعلم ذلك، ولا يعلم مدى قدراته الذاتية"[١].

عجْز الفيل النابع من جهله بقدرته ومعرفته بذاته، ليس هو ما يستدعي الدهشة، وإنما عجْز ذلك الإنسان الذي سخر الله الكون، وكرّمه في البر والبحر

---

(١) بتصرف واختصار من كتاب: قوة التحكم في الذات، إبراهيم الفقي، ص(١٣-١٤).

وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلا.

ويزداد العجب والدهشة، أن يكون هذا العجز والخمول والقعود لمؤمن منّ الله عليه بمعرفته، واصطفاه بالهدى ودين الحق، ذلك العجز الذي استعاذ منه الفاروق: "اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة"[١]، وأرسلها من بعده الشاعر:

تبلّد في الناس حب الكفاح ... ومالوا لعيشٍ وكسبٍ رتيب
يكـاد يزعـزع مـن همـتي ... سدور الأمين وعزم المريب

الواقع المر:

فلتحدثني عن طبيعة الأوضاع المعيشية الوعرة، وعن التخلف الذي يكتنف الأمة، وعن الفقر والجهل والمرض والجوع الذي يأكل في العقول والعظام، وعن الاستبداد الذي ران على كثير من الدول، وأفرز همما بالية، وعزائم واهنة، تعيش حبيسة آلامها.

أوافقك في أن معدلات البطالة بين الشباب العربي هي الأعلى في العالم، وأنها تجاوزت ضعف المستوى العالمي عام ٢٠١٤م، وأن المنطقة العربية تحتاج عام ٢٠٢٠م إلى توفير أكثر من ٦٠ مليون وظيفة جديدة لاستيعاب الداخلين الجدد إلى القوى العاملة[٢].

وأوافقك في أن إحصاءات منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (فاو)، تقول إن حوالي ٤٠ مليون عربي يعانون من نقص التغذية، أي ما يعادل ١٣٪ من

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، (٦/ ٢٧٦).
(٢) تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦م، بعنوان "الشباب وآفاق التنمية الإنسانية في واقع متغير".

السكان تقريبا، بالإضافة إلى نحو مائة مليون عربي يعيشون تحت خط الفقر[١].

وأوافقك أن أكثر من ربع سكان العالم العربي محرومون من التعليم ومواصلة التعلم، وأن نسبة الأمية بلغت ٢٧.١ ٪، بحسب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "الكسو"[٢].

بل رصد تقرير إنمائي قبل ذلك بسنوات، أن نسبة الأمية في الوطن العربي وصلت إلى ٤٥٪، مقابل ١.٥٪ في الغرب[٣].

أوافقك الحقيقة المرة، وليس بمقدوري أن أستعير مقولة الشاعر محمود درويش "لا عرش لي إلا الهوامش"[٤]، لأن كثيرا من أبناء أمتي عرايا حتى على هامش الحياة.

أعلم أن البيئة لها حظ وافر في تشكيل مسار الفرد، لكن هذه الأوضاع المأساوية لا ينبغي أن تسجن تلك الطاقات الكامنة بداخلك، فقط أطلق لنفسك شراعها، ودعها تتناغم مع الكون.

(١) تقرير على موقع الجزيرة نت بعنوان: "الفقر في العالم العربي".
http://www.aljazeera.net/news/arabic
(٢) تقرير على موقع الجزيرة نت بعنوان "نسبة الأمية في الوطن العربي".
http://www.aljazeera.net/news/cultureandart
(٣) تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٣م.
(٤) من قصيدة بعنوان (تنسى كأنك لم تكن)، لمحمود درويش.

لماذا نسيت؟

أنت تستطيع، نعم إنك تستطيع فأنت كائن متفردٌ، كرمه الله تعالى على كثير ممن خلق ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

لعلك نسيت أنك الخليفة في الأرض، قالها ربك قبل نشأتك الأولى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وإذا كنت مُستخلفا في الأرض لإعمارها بنهج السماء، وجعلك ربك قادرا عليها، وسخر لك قوتها الباطنة والظاهرة، فهو يعني أنك قوي بما يكفي لإتمام الرسالة.

ودع الأديب يحلق حولها بحسه الأدبي وفكره العميق، فيرسلها إليك أمثالا سائرة: "فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل؛ وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله - بإذن الله - في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه"[1].

خذها من غير فقيه، هما اثنتان يا ابن العم لا قوام للأمة بدونهما: القوة والأمانة، وبحسبك آي القرآن تخلد شهادة امرأة سقى لها موسى الكليم: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/٥٦).

القوة المجهولة:

الكاتبة الأمريكية "جين ماري ستاين" من المهتمين بالتعلم السريع وتطوير القدرات الذهنية، ولها باع كبير في الأدب القصصي، وأشهر أعمالها رواية "فصل الساحر"، والتي تحولت إلى فيلم سينمائي بعنوان "العصبي".

عدّدت "ستاين" في كتاب لها بعنوان "كيف تضاعف قدراتك الذهنية"، البراهين العلمية على امتلاك الإنسان لقوى هائلة تفوق سقف تطلعاته.

ستاين تذكر جين ماري ستاين في كتابها، أن الدراسات قد أثبتت أن عقلك أيها الإنسان يعمل أفضل من الحاسوب، وأن كل نتاج عقولنا البشرية يتم باستخدام عشرة بالمائة فقط من إمكاناتها، بينما تظل التسعون بالمائة المتبقية مهملة دون استخدام.

وطرحت تساؤلات لـ "إسحاق أزيموف" الأديب الأمريكي، الروسي المولد، والذي كان أصل تخصصه في الكيمياء، فيما يتعلق ببعض الحقائق حول قدراتنا العلمية:

لماذا لا نتعلم بصورة أفضل في حين يحتوي المخ على ٢٠٠ بليون خلية (بما يعادل عدد النجوم في بعض المجرات الكونية)؟

لماذا لا نتذكر في حين تستطيع عقولنا أن تحتفظ بحوالي ١٠٠ بليون معلومة (والتي تعادل ما تتضمنه دائرة معارف)؟

لماذا لا نفكر بصورة أسرع في حين أن أفكارنا تسافر بسرعة تتجاوز ٣٠٠ ميل في الساعة (وهي سرعة أكبر من أسرع قطار في العالم).

وحتما يتحدث الرجل عن أكبر سرعة في وقته، وإلا فإن قطارا يابانيا يعمل

بقاعدة الرفع المغناطيسي سجل في أبريل ٢٠١٥م سرعة ٦٠٣ كيلو مترات في الساعة.

ويضيف: لماذا لا نفهم بصورة أفضل في حين أن عقولنا تحتوي على أكثر من ١٠٠ تريليون وصلة عصبية (وهو ما يتوازى مع أعظم الحاسبات الإلكترونية عملا)"[1].

أنت قوي، إن لم تصدقني فانظر إلى الصبي الصغير كيف يقود الجمل الضخم فينقاد معه بيسر، وتابع الصياد الضعيف حين يحتال على الوحوش الضارية ويسقطها بالحفر، وراقب من يدرب الصقر ويروض خيل البراري كيف يفعل ذلك.

إنها قوة الاستخلاف التي تتيح له استغلال قوى الكون العاتية من أجل تسخيرها لعبودية الخالق سبحانه.

طاقات الإنسان كامنة، حتى إذا ما وجدت عوامل بعثها وانطلاقتها، تحولت إلى حركة تملأ حيزا من الفراغ الإنساني.

عبقريات قابلة للتكرار

هل بإمكانك أن تتعلم لغة حية في أقل من شهر؟ لوهلة يبدو السؤال مثيرا للسخرية، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يتعلم لغة جديدة بقواعدها ومفرداتها وتعبيراتها، لكن هذا التساؤل يأتي من ضعف الإدراك، ووضع حتميات غير ملزمة، ليست مبنية على قواعد علمية تضع قدرات الإنسان في الاعتبار.

إن إدراكك للأمور مجرد تصورات ذهنية لها لا يعني بالضرورة تطابقها، فعندما تنظر في الخريطة على إحدى مناطق نيويورك فليس ما تراه هو الحقيقة على

(١) بتصرف واختصار من: كيف تضاعف قدراتك الذهنية، جون ماري ستاين، ص(١٦-١٨).

الأرض، لأنك رأيت تصورا ذهنيا لها، ومن ثم ينبغي لك العلم بأن "الخريطة ليست هي المنطقة"[1]، وأن تصورك السلبي عن قدراتك ليس ابن الحقيقة.

وأكرر السؤال: هل بإمكانك أن تتعلم لغة حية في أقل من شهر؟

لم لا؟

فعلها إنسانٌ مثلك، يملك عقلا بشريا كعقلك، هو الصحابي الجليل زيد بن ثابت، يحكي عن ذلك فيقول: (قال لي رسول الله ﷺ: أتحسن السريانية؟ فقلت: لا. قال: فتعلمها؛ فإنه يأتينا كتب، فتعلمتها في سبعة عشر يوما)[2].

ومن الصدر الأول وخير القرون، ننتقل إلى حيث الآثار والبحث عن الماضي تحت ركام التراب، إلى العالم الأثري هنريخ شليمان، ذلك الألماني الذي جاب أقطار الأرض للبحث عن طروادة، وحل وارتحل من أجل كشفها، كانت له مع تعلم اللغات قصة.

كان شليمان قد اعتاد طيلة عمله بالتجارة "أن يتعلم لغة كل بلد يتجر معه، وأن يكتب بهذه اللغة ما يتصل بأعماله في مفكرته اليومية، وبهذه الطريقة تعلم اللغات الإنجليزية، والفرنسية، والهولندية، والأسبانية، والبرتغالية، والإيطالية، والروسية، والسويدية، والبولندية، والعربية. ثم ذهب إلى بلاد اليونان ودرس فيها لغة الكلام الحية، وسرعان ما أصبح في مقدوره أن يقرأ اليونانية القديمة والحديثة بنفس السهولة التي يقرأ بها الألمانية"[3].

(١) البرمجة اللغوية العصبية وفن الاتصال اللامحدود، إبراهيم الفقي، ص(٢٣).
(٢) رواه أحمد في المسند، (٢١٥٨٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٨٧).
(٣) قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورانت، (٦/ ٥٠).

إنما العجز عجز الهمم:

وأبدا لم يكن الوهن والمرض والعجز البدني مبررا للقعود والرضا بالسكون المقيت، فإنما العاجز من أقعدته همته، وحاز جسدا فتيا كأجساد البغال وعقلا كأحلام العصافير، لا تجاوز همته هامته، فهو عرفجي الهمة، عرفجة وما أدراك من عرفجة.

سمع رجلٌ آخرَ يدعو قائلًا: اللهم أمتني ميتة "عرْفجة"، فظن السامع أن الرجل قد مات شهيدًا، أو عاش سديدًا، أو لقى الله صائمًا أو قائمًا فقابله بفعل حميد، فسأله سائل: ومن عرْفجة هذا؟ وكيف مات؟

فأجابه: "هذا رجل أكل لحمًا مشويًا، وشرب ماءً نميرًا طيبًا، ونام في الشمس، فمات، مات على شبع وريٍ ودفء، فما أحسنها من ميتة"(1).

فأين هو من عجوز تصابت همتها، لئن ضعف بصرها فقد امتد أفقها، ولئن احدودب ظهرها فلقد استوى عزمها، قال عنها الحبيب ﷺ: (إن موسى أراد أن يسير ببني إسرائيل فأضل عن الطريق، فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدثك أن يوسف أخذ علينا مواثيق الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا.

قال: وأيكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما تدري أين قبر يوسف إلا عجوز بني إسرائيل، فأرسل إليها فقال دليني على قبر يوسف فقالت: لا والله لا أفعل حتى أكون معك في الجنة، قال: وكره رسول الله ما قالت فقيل له: أعطها حكمها فأعطاها حكمها فأتت بحيرة، فقالت: أنضبوا هذا الماء، فلما نضبوه قالت: احفروا هنا، فلما حفروا إذا عظام يوسف، فلما أقلوها من الأرض فإذا الطريق مثل ضوء النهار)(2).

---

(1) بتصرف من كتاب: بواعث السرور، خالد عمر الدسوقي، ص(٢٥).

(2)رواه ابن حبان في صحيحه، (٧٢٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٣١٣).

فلم يكن العجز البدني والمرض والضعف حاجزا أمام الانطلاق والعمل، وما أصيب الإنسان إلا في عزمه، ومتى كانت الهمة عالية حطم الإنسان بها المحال، والتاريخ خير شاهد، ودونك المثال، فبه يتضح المقال:

الأعمى البصير:

عبد الله بن أم مكتوم الرجل الضرير الذي عاتب الله نبيه بشأنه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١، ٢]، مؤذن الرسول ﷺ مع بلال، كان أعمى البصر لا البصيرة، معلول الجسد لا النفس، لم يستسلم لواقعه أو ينزوي في زاوية الحياة، بل دق صدره بيده وقال: هأنذا.

وما كان رسول الله ﷺ ليمضي في غزواته ويستخلف ابن أم مكتوم على المدينة، إلا وهو يعلم يقينا أنه الرجل.

نقل ابن عبد البر في الاستيعاب عن الواقدي قوله في استخلاف ابن أم مكتوم: "استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته"(1).

ومع أنه الله قد رفع عنه الحرج في الجهاد، إلا أن نفسه التواقة إلى نصرة الدين وفتح الطريق أمام البشرية للتعرف على الإسلام، جعلته يحلق في ميادين القتال وهو الرجل الأعمى، فكان يطالب في المعارك أن تكون راية الإسلام بيده، وما أدراك ما قيمة الراية في القتال قديما، فلو سقطت كانت الهزيمة، لذا كانت تُمنح لأهل القوة والشجاعة.

كانت الراية بالفعل له، أتدري كيف ولِمَ؟

يأتيك منه الجواب: "ادفعوا إلي اللواء فإني أعمى لا أستطيع أن أفر،

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، (١/ ٣٧٢).

"وأقيموني بين الصفين"(١).

وشهد ابن أم مكتوم معركة القادسية كبرى المعارك الإسلامية في بلاد الفرس، وحمل الراية بها حتى لقي ربه شهيدا.

نوره في قلبه:

ولئن كَبُر عليك النظر إلى القرن الأول متذرعا بعوامل بنائه الخاصة، فدونك أهل العصر من رواد العلم والنضال.

فمن لا يعرف عالم الحجاز الذي جاب علمه الآفاق، أحد أئمة العصر في العلم والدعوة، هو الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، ذلك الجهبذ الذي فقد بصره في ريعان الشباب، وأبى إلا أن يتخطى حاجز اليأس، والتمس العلم من معينه حتى صار له معينا.

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما   ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل   وفي فمي صارمٌ كالسيف مشهورُ

قعيد يهز العروش:

وسبحان من هزّ عرش الصهاينة بعملاق لا تهتز له يد، ولا تتحرك له قدم، خلا تراب الأرض من أثره، ولكن خلد الله بين الأنام ذكره، هو الشيخ المناضل أحمد ياسين، والذي ارتعدت له الفرائص الصهيونية.

بربك ماذا يُنتظر من قعيد يعيش بشلل رباعي، تعجز يده عن دفع ذبابة تقع على وجهه، قدماه لم تلامسا الأرض منذ إصابته المبكرة في أولى فترات شبابه، وفقد

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١/ ٣٦٤).

إحدى عينيه جراء التعذيب الوحشي في سجون إسرائيل، وبقيت الأخرى تزحف بضعفها إلى أختها.

لكنها قوة النفس والإرادة وقبلهما العقيدة، استطاع أن يربي شعبا بعلمه ودعوته وتفاعله مع الجماهير، وأنشأ حركة حماس التي وقفت شوكة في حلقوم الاحتلال، ولقي ربه شهيدا بعد أن استهدفته الأباتشي بثلاثة صواريخ وهو خارج من المسجد بعد أداء صلاة الفجر.

قيل لي عنك عـاجزٌ وضعيفٌ   قيل شيخٌ محطمٌ قيل مقعد
قلت كلا لم يعرفوك ولكن   نظروا للأمور نظرة أرمد
لم تكن مقعدا ولكن هماما   ملهما للجهاد والكون يشهد
لم يكن ذلك الكليل لسانا   بل هو الصارم الحسام المهند
لم يكن صوتك المهدج عِيّا   بل سطورا من الملاحم تُنشد
لم تكن تلك أجفان كَلٍّ   بل سهاما من اللظى تتوقد

قصة إرادة:

كثيرا ما نخلط بين الإرادة والقدرة مع البون الشاسع بينهما، فتقف كلمة "لا أستطيع" حائلا بيننا وبين الإنجاز، فإذا ما تأملنا في أحوالنا لوجدنا أن الخلل يكمن في عدم المحاولة.

تعال معي نلقي نظرة على شاب سوري يرقد في فراشه لا يتحرك منه شيء سوى عينين تدوران في محجريهما، ولا أعدك بأن تتبين الكثير من كلماته التي تخرج كأنها أتت من بئر سحيق، يحكي قصته، قصة الإرادة.

حصل الشاب السوري خلدون سنجاب على شهادة البكالوريا عام ١٩٩٤م،

وبدأ يجهز نفسه للالتحاق بكلية الهندسة، فذهب مع أصدقائه للترفيه.

لا يعلم خلدون كيف ارتطم رأسه بقاع المسبح الصلب، لكنه بعد نقله إلى المستشفى وعجزه عن الحركة، يدرك أن فقرة من فقرات الرقبة تعرضت للكسر، والنتيجة شلل كامل في جميع أجزاء جسمه، وشلل في الحجاب الحاجز لا يجعله قادرا على التنفس إلا عن طريق الرئة الصناعية.

لم يقبع خلدون على سرير ينتظر الموت، لكنه أدرك أنه طالما بقي على قيد الحياة، فلا ينبغي له الاستسلام، دفعته عزيمته وإصراره إلى التركيز على مجالات العمل الذهني، وأتقن البرمجة في مختلف التخصصات بلغة C++، أنجز العديد من البرامج، وعمل لصالح قناة متخصصة في برامج الأطفال، ولعلك تسأل كيف يتعامل مع الحاسوب.

يتعامل بلسانه وشفتيه، وبمعاونة أهله وأصدقائه تعلم كيف يستخدم فأرة الحاسوب بلسانه، واعتاد تشغيلها رغم ما مر عليه من فترات طويلة تعرضت شفتاه للحساسية ومن ثم كان يتداوى بالمراهم والأدوية، كما وضعوا له سماعة للأذن مثبتة في رأسه كاللجام.

وأصبح ذلك المبدع مبرمجا لدى عدة شركات عالمية، ومديرا لسيرفرات لينكس على مدى سنوات، وأصبح مثالا في التحدي والإصرار[1].

الضعف ينبع من النفس:

فإذا كان الشرع والعلم والواقع يؤكد على قوة الإنسان، فلم سيطر علينا القعود والخمول، والعيش على هامش الحياة، والرضا بمتابعة الأحداث دون

(1) https://www.youtube.com/watch

التدخل للتأثير على مسارها؟

هذه المشكلة تنبع من داخل الإنسان، من نظرة الإنسان الدونية إلى نفسه وازدرائها، واعتقاداته تجاهها، فهو لا يرى قوته وقدراته.

فذلك الاعتقاد هو المؤثر الأول والأقوى في السلوك الإنساني، يقول العالم الألماني "جوته": "أشد الأضرار التي يمكن أن تصيب الإنسان هو ظنه السيئ بنفسه"[1].

وينقل الفقي عن عالم النفس النمساوي "ماسلو" قصة تبرز تأثير الاعتقاد السلبي على النفس والسلوك البشري، قصة رجل مريض يعتقد في نفسه أنه جثة، مجرد جثة، فخطر في بال الطبيب أن يتوجه بسؤال ذكي إلى مريضه: "هل من المعقول أن تنزف الدماء من الجثة؟"، أجاب المريض على الفور نفيا، فما كان من الطبيب إلا أن وخز إصبع مريضه فنزل منه الدم، فصاح ذلك المريض: "الآن فقط اقتنعت أنه من الممكن أن تنزف الدماء من الجثث"[2].

فالاعتقاد يمثل الإطار الأكبر للسلوك البشري، ومتى كان الاعتقاد قويا، ستكون التصرفات منسجمة مع ذلك الاعتقاد.

ومتى ما رأيت من نفسك ضعفا، فاستعن بالله ولا تعجز، ولتحول العجز إلى كنز باللجوء إلى الله والاستعانة به، ولا تنظر إلى ما حُرمت منه، ولكن انظر إلى ما أنعم الله به عليك.

ودونك أسطورة المعاقين "هيلين كيلر"[3]، التي تحدت إعاقة فقدان السمع

(١) قوة التحكم في الذات، إبراهيم الفقي، ص(٣٠).
(٢) قوة التحكم في الذات، إبراهيم الفقي، ص(٣٨).
(٣) لمطالعة المزيد من أخبارها ينظر: كيف أصبحوا عظماء، سعد الكرياني، ص(١٤٧-١٤٩).

والبصر، أصابتها في الثانية من عمرها، فجابهت عجزها، وتفوقت على نفسها، ودرست، وحصلت على بكالوريوس العلوم وهي في الرابعة والعشرين والتحقت بكلية "رود كليف"، لدراسة العلوم العليا، وانهالت عليها الطلبات لإلقاء المحاضرات والكتابة للصحف في المجلات.

كان مما يحفظ عن هلين كيلر أنها قالت: "لقد أعطاني الله الكثير جدا من النعم، وليس لدي وقت للتفكير فيما حرمني منه"[1].

يا عزيز القوم ثق بقدراتك، بتلك القوى والطاقات التي أودعها الله فيك، وردها جميعا إلى المنعم بها، وأطلقها حيث يريد ربك، لتشق بها سكون الكون من حولك، في غير بطر أو تكبر، وأطلق لنفسك أشرعتها.

(١) العادات السبع للمراهقين الأكثر فاعلية، شين كوفي، ص(٦٥).

البصيرة الثانية

فرد يحيي أمة

"بئس حامل القرآن أنا، إنْ أُتيتم من قِبَلي"

الصحابي
سالم مولى أبي حذيفة

(٢)

فرد يحيي أمة

"بوذا المبتسم"، ذلك هو الاسم الذي اختارته الهند لأول تجربة لترسانتها النووية قرب حدودها مع باكستان في مايو ١٩٧٤م، لتسبق جارتها المسلمة بخطوات واسعة في مجال القوة الرادعة.

بعد تلك المفاجأة، تلقّت القيادة الباكستانية رسالة سرية من شاب باكستاني يعمل خبيرا للمعادن في هولندا، يعرض الانضمام لهيئة الطاقة النووية الباكستانية، لكن المسؤولين قللوا من شأنه، فعاود الاتصال من جديد، ولكن هذه المرة لرئيس الوزراء "ذو الفقار علي بوتو"، والذي كلف المخابرات بتقديم تقرير عن ذلك الشاب، وفعلت المخابرات، وأنهت التقرير بأنه غير كفء للعمل في ذلك المجال، إلا أن 'بوتو' لمس الإصرار وروح التحدي في رسالة الشاب، وبخاصة أنه يعمل في وظيفة بدولة أوروبية فما الذي يدفعه لتركها؟

أمر بوتو رئيس هيئة الطاقة النووية الباكستانية بإرسال وفد سري لمقابلة الشاب في هولندا، وما هي إلا ساعات من اللقاء حتى غادر الوفد رافعا توصية عاجلة لرئيس الوزراء بالاستفادة من إمكاناته.

ما إن تقلّد الشاب وظيفته حتى عمل على تطوير أسلوب العمل بالهيئة، وأنشأ معامل هندسية للبحوث أصبحت بؤرة لتطوير تخصيب اليورانيوم اللازم للمشروع النووي الباكستاني، ومع استمراره في بذل الجهد، استخدم طريقة مبتكرة في تطوير المفاعلات النووية اختصرت على باكستان عشرات السنين.

وفي ١١ مايو ١٩٩٨م، نفذت الهند تجربة نووية أخرى أطلقت عليها "شاكتي"،

(٢)

فرد يحيي أمة

"بوذا المبتسم"، ذلك هو الاسم الذي اختارته الهند لأول تجربة لترسانتها النووية قرب حدودها مع باكستان في مايو ١٩٧٤م، لتسبق جارتها المسلمة بخطوات واسعة في مجال القوة الرادعة.

بعد تلك المفاجأة، تلقّت القيادة الباكستانية رسالة سرية من شاب باكستاني يعمل خبيرا للمعادن في هولندا، يعرض الانضمام لهيئة الطاقة النووية الباكستانية، لكن المسؤولين قللوا من شأنه، فعاود الاتصال من جديد، ولكن هذه المرة لرئيس الوزراء "ذو الفقار علي بوتو"، والذي كلف المخابرات بتقديم تقرير عن ذلك الشاب، وفعلت المخابرات، وأنهت التقرير بأنه غير كفء للعمل في ذلك المجال، إلا أن "بوتو" لمس الإصرار وروح التحدي في رسالة الشاب، وبخاصة أنه يعمل في وظيفة بدولة أوروبية فما الذي يدفعه لتركها؟

أمر بوتو رئيس هيئة الطاقة النووية الباكستانية بإرسال وفد سري لمقابلة الشاب في هولندا، وما هي إلا ساعات من اللقاء حتى غادر الوفد رافعا توصية عاجلة لرئيس الوزراء بالاستفادة من إمكاناته.

ما إن تقلّد الشاب وظيفته حتى عمل على تطوير أسلوب العمل بالهيئة، وأنشأ معامل هندسية للبحوث أصبحت بؤرة لتطوير تخصيب اليورانيوم اللازم للمشروع النووي الباكستاني، ومع استمراره في بذل الجهد، استخدم طريقة مبتكرة في تطوير المفاعلات النووية اختصرت على باكستان عشرات السنين.

وفي ١١ مايو ١٩٩٨م، نفذت الهند تجربة نووية أخرى أطلقت عليها "شاكتي"،

لكنها فوجئت بعدها بأيام معدودة، بقيام باكستان بتنفيذ أول تجربة انفجار لقنبلة نووية انشطارية، ثم بتجربة ثانية بعدها بأيام، أطلق عليهما "تشاغاي ١" و"تشاغاي ٢"، وخرج الشعب المسلم عن بكرة أبيه يحتفل بذلك الإنجاز، ورفع صاحبه على الأعناق، باعتباره بطلا لأمة الإسلام.

ذلك البطل لم يكن سوى العالِم المسلم "عبد القدير خان، أبو النووي الباكستاني، والذي استطاع بجهده الفردي تغيير المعادلة، وتحقيق توازن الرعب مع الجارة الهندوسية المعادية"(١).

إنما تُبنى الأمم بجهد الأفراد، فقط إذا ما استشعروا المسؤولية، ووظفوا طاقاتهم وإمكاناتهم منطلقين بدافع ذاتي صنعته منظومة القيم التي يعيشون بها، يقول ستيفن كوفي: "كلمة مسؤولية، أي القدرة على الاستجابة، القدرة على اختيار استجابتك، ويدرك الأشخاص الذين يملكون روح المبادرة العالية هذه المسؤولية، إنهم لا يلقون باللوم على الملابسات أو الظروف أو التكيف لتبرير سلوكهم، إن سلوكهم هو نتاج خيارهم الواعي، المرتكز على القيم"(٢).

مناط التكليف فردي:

الشعور بالمسئولية الفردية في الفكر الإسلامي، ينطلق من كون مناط التكليف فرديا، وأن المرء سوف يسأل وحده يوم يبعث ويحاسب وحده ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٩٥].

لذلك تزخر النصوص الشرعية بما يؤكد على المسئولية الفردية، منها توجيه

(١) بتصرف واختصار من كتاب: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ. جهاد الترباني. ص(٦٥٧-٦٦٣).

(٢) العادات السبع للناس الأكثر فاعلية، ستيفن كوفي، ص(١٠٠).

الخطاب بصيغة فردية كما في الأحاديث: (من رأى منكم منكرا فليغيره)(١)، (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)(٢)، (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه)(٣).

المسئولية الفردية شعور يصنعه توقير الخالق والشفقة على المخلوق، وعندما تتأمل في القرآن تجد أنه كثيرا ما يقرن بين الصلاة والزكاة، فالأولى تعظيم لله، والثانية رحمة بالخلق، وعليهما مدار السعادة والنجاة.

كان عمر بن الخطاب يبحث في مواسم الحج عن رجل بعينه يلتمس منه الدعاء، لم يكن هذا الرجل صحابيا، لكن الرسول ﷺ قد نصح عمر بأن يطلب منه الدعاء إذا ما قابله، لأنه مستجاب الدعوة ببره لأمه.

هذا الرجل هو أويس القرني، استشعر مع ضيق يده وقلة حيلته مسئوليته تجاه أمته، فلم يضنّ على أهل الإسلام بشعور رقراق، عبّر عنه بقوله: "اللهم إني أعتذر إليك من كل كبدٍ جائعةٍ وجسدٍ عارٍ وليس لي إلا ما على ظهري وفي بطني"(٤).

وعندما يستشعر الفرد أنه مسئول تجاه أمته ومجتمعه، حينئذ تتفجر في داخله الطاقة الإبداعية، وتراه لا ينفك عن إيجاد حلول لأزمات أمته، وليت الفرد يدرك أنه يسهم بصورة أو بأخرى في تشكيل الواقع من حوله.

(١) رواه مسلم، (٧٠).

(٢) رواه البخاري، (٢٧٢٤).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، (٣١١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٤٩).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، (٥٧٢٢)، وانظر أيضا: تاريخ دمشق، ابن عساكر، (٩/ ٤٤٤-٤٤٥).

أنت جزء من المشكلة:

لقد تسللت إلى أمتنا فلسفة الغرب المسيحي في التعامل مع الخطيئة من كون الإنسان خاطئا منذ ولادته لأن أباهم آدم ارتكب الخطيئة وأكل من الشجرة، ومن ثم زعموا أن المسيح صلب ليكفر عن خطايا البشر.

فانسابت هذه الفلسفة بصورة مختلفة إلى الذهنية العربية والإسلامية، وصارت تنزع إلى تحميل الآخرين أسباب النقص والقصور للتهرب من المسئولية الفردية.

فأصبح الفرد في أمتنا لا تراه إلا ناقما على المجموع، يُحمِّل الآخرين أسباب كل الكوارث الأرضية دون أن يعتبر نفسه جزءًا من هذا المجموع ومن الأزمات نفسها، ولا يرى حلا سوى أن يتبع العالم الحائر نظامه العقلي، وتراه "يعتقد ببراءة جانبه، ولا يخطر في باله أن يتهم نفسه، فآراؤه صحيحة، ومواقفه سليمة، يعرف كلّ شيء، ولو أن الناس أطاعوه لحل مشكلات العالم.. بينما عجز عن حل مشكلة عائلية.. و يخفق أمام معادلة رياضية، ولا يملك خبرة ولا دراسة، ولا هو قادر على اتخاذ قرار خاص بتغيير خلق ذميم"(١).

هذه النظرة المعتلة للمسئولية الفردية تنبع من جهل وتغافل الفرد عن طبيعة الاجتماع البشري، والذي ينشأ من إقامة الفرد علاقات اجتماعية بمن حوله باعتباره أحد مكونات المجتمع، وعلى أساس أنه يؤثر في مجتمعه ويتأثر به.

يقول الأديب والمؤرخ المغربي عباس الجراري: "الهوية الفردية لا تكتمل إلا بالاندماج في وعي جماعي، حينئذ يشعر الإنسان بقيمته كفرد مجرد، وقيمته كفرد في جماعة أو مجتمع، لأن فلسفة الحياة تكمن في أن ينظر الإنسان لغيره كما ينظر

(١) المسؤولية الفردية، سلمان العودة، مقالة على موقع الإسلام اليوم، بتاريخ: ٢٥/٢/٢٠٠٦م

لنفسه"(١).

وشتان بين من يستشعر مسئوليته كفرد، وبين صاحب المنطق التبريري الذي يتبرأ منها، ويبحث عن المؤثرات الخارجية ليلقي عليها بالتبعة، الأول سار على نهج آدم عندما أقر بخطئه ولم يتنصل من المسئولية عنه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣]، والثاني حذا حذو إبليس عندما نسب الإغواء إلى ربه متنصلا من المسئولية تجاه الخطأ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر: ٣٩].

علمتني نملة:

للنمل لغة لم يصل إلينا شيء من ترجمتها سوى ما ذكره القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان، في ذلك المقطع الأوحد كانت نملة تسعى بمفردها لإنقاذ أمة: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

لن أستوقف القارئ عند ما أظهرته النملة من إحسان الظن بسليمان وجيشه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لكننا لا نجد مفرا من الوقوف بإجلال حول مدلولات عبارتها الوجيزة.

النملة لم يساورها ذلك الهاجس الذي يهيمن على أفكار البشر، ويحتقرون على إثره جهودهم الفردية ويرون أنها لن تؤثر في تغيير واقعهم المشحون بالأزمات.

(١) الإنسان في الإسلام، عباس الجراري، ص(٣٧).